

تل الصبي الأبيض

(دراسة أثرية من العصر الحجري الحديث الى العصر البرونزي الحديث)

م.م اسماعيل شيخي أوسي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ الجامعة اللبنانية

Tall White Boy

(An archaeological study from the Neolithic to the modern Bronze Age)

Ass. Lec. Esmaeel Shikhi Osi

Faculty of Arts & Humanities\ Lebanese University\ Lebanon

esmaeelos9@gmail.com

Abstract

The Belikh River is one of the rivers that hide in its basin many of the prehistoric archaeological hills. Among the most important of these hills, the Sabi Alabyad Tell, about 30 km south of the Syrian-Turkish border, 80 km north of the city of Raqqa. A Dutch mission headed by Mortis Van Loon has been working on this site since 1986, and the work followed by Peter Akkermans. The results of the excavation revealed the discovery of 11 architectural phases, the lowest levels (11-7) to the early Neolithic period (about 5900-5200 BC), while the subsequent levels (6-4) are part of the transition period (5200-5100) BC and the upper echelons (3-1) date back to the early Chaldean period (5100-5000 BC). Among the important discoveries at this site, the discovery of the so-called Burnt village in the normal sixth.

Keywords: Neolithic, Bronze Age, Belikh, Scorched Village.

الملخص

يعد نهر البليخ من الأنهار التي تخفي في حوضه الكثير من التلال الأثرية العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ. ومن بين أهم هذه التلال، تل الصبي الأبيض الواقع على بعد نحو ٣٠ كم جنوب الحدود السورية التركية و ٨٠ كم شمال مدينة الرقة. عملت في الموقع بعثة هولندية برئاسة مورتيس فان لون M.Vanloon منذ عام ١٩٨٦ وتابع العمل بعده بيتر أكرمانز P. Akkermans. وقد أسفرت نتائج التنقيب عن اكتشاف إحدى عشرة مرحلة إعمارية تعود السويات الأخفض (١١-٧) إلى أوائل العصر الحجري الحديث الفخاري (حوالي ٥٩٠٠-٥٢٠٠ ق.م) بينما تشكل السويات اللاحقة (٦-٤) جزءاً من المرحلة الانتقالية (٥٢٠٠-٥١٠٠ ق.م) والسويات العليا (٣-١) تعود إلى بداية مرحلة حلف (٥١٠٠-٥٠٠٠ ق.م). ومن بين المكتشفات المذهلة في هذا الموقع اكتشاف ما سمي بالقرية المحروقة Burnt Village في السوية السادسة.

الكلمات المفتاحية: العصر الحجري الحديث، العصر البرونزي، البليخ، القرية المحروقة.

- المقدمة:

يعد نهر البليخ من الأنهار التي تخفي في حوضه الكثير من التلال الأثرية العائدة إلى عصور ما قبل التاريخ وهذا ما أشار إليه الباحث الأثري مورتيس فان لون M.Vanloon حيث تبين أن ٢٣ تلاً أثرياً في ذلك الحوض يخفي آثار عصور ما قبل الفخار وعصور أوائل الفخار (٩٥٠٠-٥٥٠٠ ق.م حسب التاريخ المعير) وأن ٢٧ تلاً أثرياً يضم في ثناياها بقايا فخار تل حلف الشهير (٥٥٠٠-٤٥٠٠ ق.م) بينما كان فخار العبيد موجوداً في ١٤ تلاً أثرياً. أما عصر أوروك فلم تكن آثاره موجودة إلا في سبعة تلال. ويشير آخر إحصاء قام به العالم الهولندي فان لون من خلال مسح أثري لضفتي نهر البليخ إلى وجود ٢٥٠ موقعاً أثرياً بتلك المنطقة^(١). ومن بين أهم المواقع الأثرية في حوض البليخ تل الصبي الأبيض.

- التنقيبات الأثرية في وادي نهر البليخ:

أجريت في منطقة البليخ العديد من التنقيبات والأسبار التي كان قد بدأها العالم الانكليزي ماكس مالوان M. Mallowan في الثلاثينات من القرن الماضي ثم العالم الفرنسي جاك كوفان J. Covan في السبعينات وأخيراً الباحث الهولندي بيتر أكرمانز P. Akkermans في التسعينات^(٢). وقد أسفرت هذه التنقيبات عن التوصل إلى النتائج الآتية:

١- منطقة البليخ من المناطق الهامة لدراسة العصر الحجري الحديث الفخاري (النيوليت الفخاري) والتطورات اللاحقة التي حصلت في مرحلة حلف وما قبلها وهذه التطورات لم تكن واضحة في غرب سوريا.

٢- إن الأسبار التي أجراها جاك كوفان في تل أسود (الطبقة ٧-٨) أسفرت عن تقديم عينات فخارية ظنها كوفان هي الأقدم حيث اعتبر أن صناعة الفخار كانت قد بدأت في أعالي البليخ ومنها انتشرت إلى الغرب والشمال ولكن هذا الرأي أصبح بحاجة إلى إعادة النظر في ضوء المكتشفات التي تمت في تركيا ومناطق الروج.

٣- إن التحاليل الكربونية أفادت بأن النيوليت الفخاري بدأ في منطقة البليخ بأواخر الألف السابع ق.م واستمر لفترة تزيد عن خمسة قرون ما بين ٦١٠٠-٥٢٠٠ ق.م ولهذا فهي تمثل مادة هامة لدراسة التطورات التي حصلت بعد منطقة الروج.

٤- تم إجراء وإعداد كرونولوجي خاص لمنطقة البليخ بحيث يبدأ من:

بليخ I: وهي مرحلة نيوليت ما قبل الفخار وتؤرخ ما بين ٧٥٠٠-٦١٠٠ ق.م

بليخ II: وهي مرحلة طويلة تمتد من ٦١٠٠ - ٥٢٠٠ ق.م وتم تقسيمها إلى: بليخ IIA - بليخ IIB - بليخ IIC

بليخ III: ٥٢٠٠ - ٤٥٠٠ ق.م وكذلك تم تقسيمها إلى أربع مراحل: بليخ IIIA - بليخ IIIB - بليخ IIIC - بليخ IIID

بليخ IV: وهي فترة الكالكوليت المبكر وظهور فخار مشابه للعبيد مؤرخة ما بين ٤٥٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م وتقسّم إلى أربع مراحل (A, B, C, D).

بليخ V: أواخر فترة الكالكوليت ومؤرخة حوالي ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق.م وتقسّم إلى مرحلتين (A, B)^(٣).

- الموقع والاكتشافات الأثرية:

يقع تل الصبي الأبيض على الضفة اليسرى لنهر البليخ الأعلى أحد روافد نهر الفرات، على بعد حوالي ٣٠ كم جنوب الحدود السورية - التركية، على بعد ٢ كم جنوب قرية حمام التركمان و ٨٠ كم شمال مدينة الرقة. يزيد مساحة التل على ٥ هكتارات ويرتفع حوالي ١٠ أمتار عن الحقول المحيطة به. عملت في الموقع بعثة هولندية بإدارة مورتيس فان لون عام ١٩٨٦ وتابع العمل بيتر أكرمانز P. Akkermans ودلت أعمال التنقيب عن اكتشاف سلسلة من المستعمرات ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ محفوظة جيداً، وتم الكشف عن إحدى عشرة مرحلة إعمارية تعود السويات الأخفض (١١-٧) إلى أوائل العصر الحجري الحديث الفخاري (حوالي ٥٩٠٠-٥٢٠٠ ق.م) بينما تشكل السويات اللاحقة (٦-٤) جزءاً من المرحلة الانتقالية (٥٢٠٠-٥١٠٠ ق.م)، والسويات العليا (٣-١) تعود إلى بداية مرحلة حلف (٥١٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م) وقد تأكد هذا التسلسل بمجموعة من التواريخ المأخوذة بالكربون المشع^(٤).

من خلال نتائج المسح الأثري لتلال وادي نهر البليخ عام ١٩٨٧ م تم العثور في الموقع الأول (تل الصبي الأبيض I) على كمية كبيرة من الشظايا والنصال الأوبسديانية وكثيراً من الفخار وخاصة فخار عصر العبيد وعصر حلف المتأخر والعصر الانتقالي حلف - عبيد. ووجد أيضاً بعض الأواني بيضاء اللون ذات الإطار المقلوب والقاعدة الدائرية ويرجح أن تعود هذه الأواني إلى عصور متأخرة. بينما تم العثور في الموقع الثاني (تل صبي الأبيض II) على الأوبسديان والفخار الملون من نفس فخار الموقع الأول^(٥).

قدم تل الصبي الأبيض دليلاً على تعاقب استيطاني مستمر باستثناء فترة هجرة دامت من ٢٠٠-٣٠٠ سنة بين السوية المنخفضة ١١/ والسوية ١٠/ التي تليها. ولم تؤثر هذه الفجوة على هذا التل فحسب بل أثرت على استيطان وادي البليخ برمته. وقد بينت أعمال المسح الأثري الذي تم عام ١٩٧٨ على تلال وادي نهر البليخ أن قلة قليلة من المواقع يمكنها سد الفجوة بين السويتين (١١ و ١٠) وبدأ هذا الميل لهجر الموقع فعلياً في أواخر النيوليت ما قبل الفخار ب ولكن يبدو أنه بلغ ذروته حوالي ٥٧٠٠ ق.م. ولعل

هذا الميل الطويل لهجر المواقع وصل إلى نهايته حوالي منتصف الألف السادس ق.م تقريباً حين أعيد من جديد تأسيس مواقع قليلة في المنطقة من ضمنها تل صبي الأبيض، فقد هجر عدد من مواقع البليخ حوالي ٦٠٠٠ - ٥٧٠٠ ق.م وأطلق الباحثين على هذه المرحلة اسم "الفراغ الفلسطيني" *Hiatus Palestinien* إذ غابت الحياة من مستوطنات كثيرة لأسباب مازال مجهولة. ويُعتقد أن تدهور الشروط البيئية والجفاف كان السبب في ذلك. ولم يعثر على آثار سكن إلا في قليل من المواقع وتل صبي الأبيض واحد منها. وتبع بعد هذا الفراغ تحسن مناخي وامتداد جديد للمستوطنات مهد بدوره لنشوء حضارات متطورة وعلى رأسها الحضارة الحلفية ذات الانتشار الجغرافي الواسع والوحدة الحضارية المدهشة والأولى من نوعها في حضارات ما قبل التاريخ في المنطقة^(٦). فقد تم الوصول إلى أقدم الطبقات المسكونة في خندق بعرق عشرة أمتار على طول المنحدر الجنوبي، وعثر على بقايا بيوت مستطيلة وعدد من التنانير الصغيرة. إضافة إلى الفخاريات الخشنة وأدوات صوانية مؤلفة من شفرات أو نصال دقيقة مثبتة أصلاً على مقابض أو نصال من الخشب أو العظم وتشكل بمجموعها أدوات مركبة من أجل الحصاد والجني ولم يعثر على رؤوس سهام مما يوحي أن الصيد كان قليل الأهمية^(٧).

ومن خلال التنقيبات كشف في نطاق وسع عن سويات البناء العليا ٦ - ١، التي تعود لأواخر الألف السادس ق.م مما أمكن التعرف العميق على بزوغ وتطور ما يدعى بحضارة حلف التي غالباً ما يقال إنها تمثل أول أوفق حضاري واسع الانتشار في الشرق الأدنى^(٨).

لقد كشفت التنقيبات في سوية العصر الحجري الحديث المتأخر / ٦٠٠٠ - ٥٥٠٠ ق.م/ وذلك في التلة الشمالية الشرقية عن فرن كبير بني جداره بطريقة اللف وظهر إلى الشرق منه مباشرة جزء من جدار بني باللبن ووظف كحاجز وفي السويات الدنيا اكتشف جداراً وأجزاء من موقد. ويمكن القول بشكل عام بأن البقايا المعمارية المكتشفة تخص باحة سكنية خارجية تقع إلى جوار أركان المسكن الفعلي. وقد تميز هذه السوية بوجود تربة تشكل الصفوة الناعمة ذات اللون الغامق أساس بنياتها وهي تحتوي على كسر فخارية لطباق وعدد ضئيل من الكسر الفخارية الناعمة والمدهونة وهي مصنوعة من تربة مخلوطة بالرمال يضاف إليها كسر فخارية من النوع المتأثر بميزات فخار سامراء ويدل العنصر الأخير على وجود اتصال بين منطقة البليخ وسامراء في وسط بلاد الرافدين خلال تلك الفترة. وفي التلة الجنوبية الشرقي من موقع صبي الأبيض، اكتشفت سوية من تلك الفترة /العصر الحجري الحديث المتأخر/ وعثر فيها على منشأة مستطيلة الشكل بسيطة ومشيدة بأحجار اللبن وذات عمارة متين تقوم فوق أساسات حجرية. ويمكننا القول بأن تلك السوية كانت معاصرة لسوية العمق، لكن مقارنة فخار تل صبي الأبيض مع فخار العمق غير مؤكد تماماً لكونه لم يعثر على فخار العمق النموذجي المعروف بالفخار الملون الداكن. ويمكن الاستنتاج بأن آثار العصر الحجري الحديث من موقع صبي الأبيض لا بد أن تكون متأخرة زمنياً عن مثيلاتها المكتشفة في موقعي الدامشلية وتل أسود القرييين منها^(٩).

لقد أظهرت التنقيبات في هذا الموقع عن تطور مجتمع معقد في وادي البليخ حوالي نهاية الألف السادس ق.م عندما بدأ المجتمع النيوليتي المحلي بهجر مواقعه المستقلة ذات الصفة المحدودة شيئاً فشيئاً باتجاه مواقع أكثر اتساعاً واتصالاً بالجوار وأخذ يتبادل البضائع والعقائد والأفكار^(١٠). ومن هنا فقد عثر في السوية العائدة لفترة حلف المبكر / ٥٥٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م/ الواقعة فوق سوية العصر الحجري الحديث المتأخر المكتشفة في الركنين الشمالي - الشرقي والجنوبي الشرقي من موقع صبي الأبيض، ويبدو أنه لم يكن هناك أية فترة انقطاع حقيقية بين السويتين. وفي حفرة التل الشمالي - الشرقي، اكتشفت تمثال أنثوي مصنوع من الطين مدهون/الشكل ١/ واكتشف في التل الجنوبي الشرقي وضمن سوية بلغت سماكتها ثلاثة أمتار بيوت من عصر حلف ويستدل من تلك السماكة أن المساكن بقيت مأهولة فترة زمنية طويلة. وكما يستدل من اكتشاف وجود العمارة ذات المساقط المستطيلة والدائرية ومن وجود حفر مطلية بالكلس وفرن ومواضع لإيقاد النار، أن نشاطات أهلية كانت تمارس في ذلك الركن من موقع صبي الأبيض. وقد أعطت الحفريات دليلاً واضحاً عن وجود نشاط مستمر في أبنية بقيت على حالها خلال الفترة الزمنية لتلك السوية وقد تميز العمارة الحلفية المبكرة المكتشفة في هذا الموقع بسيطرة نموذج المستطيل الحاد الزوايا / المستطيل أو المربع / والدائري / الشكل ٢ / وتعتبر الأبنية الدائرية المعروفة بنموذج ثولوي (Tholoi) خاصية نموذجية لتقاليد نظام العمارة الحلفية التي عرفت عبر مناطق انتشارها^(١١).

يعود السويات ٣-١ في تل صبي الأبيض لفترة حلف وهي تؤكد أن حضارة حلف جزء من العصر الحجري الحديث فتطور الحضارة المادية وانتشار المستوطنات وتنوع أنماط الإنتاج يثبت التطور المتواصل لحضارة حلف منذ العصور السابقة. فقد قدم لنا سوية البناء ٣ في هذا التل مثلاً على الاستيطان الحلفي المبكر في وادي البليخ بل وفي سورية بوجه عام ويشغل قمة التل مصطبة مرصوفة بالحجارة وبناء مستطيل الشكل ضخم جداً تحيط به ملحقات مستطيلة وأبنية دائرية على السطح ولعل المصطبة المسورة بالحجارة أفادت كنوع من ساحة عامة لكافة الأنشطة المشتركة للقرية كالولائم وممارسة الطقوس وما شابه. وتألّف المبنى من ٢٢/ غرفة صغيرة لا تتجاوز مساحة أكبرها ٥م^٢ وربما كان هناك في الأصل طابق ثان ويؤكد ذلك الافتراض: الجدران العريضة والدعامات والحجرات الصغيرة وانعدام المداخل مع بعضها والغياب الفعلي للملحقات المنزلية كالمواد والصناديق. وقد اكتشفت في غرفة واحدة كومة من القطع الصلصالية غير المشوية من كافة الأنواع، من بينها تماثيل مصفرة دقيقة الملامح لحيوانات وبشر وشظايا ختم ذي طبقة فخارية وهذه القطع تشبه إلى حد ما اللقى التي وجدت في غرفة القرية المحترقة التي سنأتي على ذكرها لاحقاً. وكان المبنى الحلفي هذا محاطاً بتشييدات دائرية عديدة تصل أقطارها إلى ٣-٤ أمتار وكان داخل هذه الأبنية مطلياً بجص قاس ومحروق عمداً ومقاوم للهواء، بينما وجدت بجوارها مباشرة كميات ضخمة من الحبوب المحروقة مما يدعو للافتراض بأن بعض هذه الأبنية الدائرية على الأقل قد استخدم في الأصل كمخازن للحبوب^(١٢).

لقد اكتشف في تل صبي الأبيض أيضاً على كميات كبيرة من الكسر الفخارية التي تؤرخ لعصر حلف المبكر أي في النصف الثاني من الألف السادس ق.م، ويمتاز هذا الفخار المكتشف بأنه من النوع المدهون والمزخرف بأشكال هندسية بسيطة وبأشكال طبيعية / الشكل ٣/ ووجدت بعض الكسر المزخرفة بأشكال تعبر عن وجوه إنسانية وتؤلف كسر الزبدي أكبر كمية ضمن المجموعة المكتشفة من فخار حلف. وتعتبر من اللقى الهامة المجموعة الصغيرة المكتشفة من فخار سامراء أو الفخار المصنوع بتأثيرات صفات فخار سامراء وهي مجموعة تتدرج ضمن سياق تقاليد حلف المكتشفة في تل صبي الأبيض / الشكل ٤/ ^(١٣)، وبشكل عام فإن فخار هذا الموقع أقرب إلى الفخار المعروف من منطقة العمق والساحل السوري وجنوب شرق الأناضول وإلى فخار حضارة سامراء في بلاد الرافدين. ويعد هذا النوع من الفخار الناعم، الرقيق، الأصل الذي ظهر منه، فيما بعد، صناعة الفخار الحلفية الشهيرة. وهكذا يكون الصبي الأبيض أول موقع يظهر أصول الفخار الحلفي ويؤكد أن الجزيرة السورية كانت جزءاً مهماً من موطن الحلفيين الأوائل، وهذا - أيضاً - يبطل فرضية الانتشار الحلفيين، عن طريق الهجرة أو التجارة أو التأثير الحضاري، من الشرق إلى الغرب. ويؤكد الأصول المحلية لهؤلاء الحلفيين، وهي الأصول التي تعود جذورها إلى العصر الحجري الحديث المحلي في الجزيرة السورية أيضاً^(١٤).

لكن من بين المكتشفات المذهلة في تل الصبي الأبيض، اكتشاف ما سمي " بالقرية المحروقة " **Burnt Village** وهو المصطلح الذي يحدد سوية البناء (٦). وقد تبين أنها كانت غارقة بالرماد بسبب حريق هائل حوالي ٥٢٠٠ ق.م. / الشكل ٥/ ولا تزال أسباب الحريق مجهولة ربما كان حادثاً أو نتيجة حرب ولا يمكن استبعاد احتمال أنه كان بسبب النيران التي كانت تضرع عمداً في القرية لأسباب طقسية. ففي أحد المنازل تم العثور على بقايا فردين بالغين من الواضح أن جثتيهما كانتا ممددتين على سطح المنزل المنبسط ولم يكن وحدهما، بل وجد معهما ١١/ كرة طينية بيضوية تحتوي على قرون خراف وحشية. وهذه الأشياء الغامضة ربما تمثل منحوتات لحيوانات بأسلوب خاص. هل كانت تلك الحيوانات هنالك لتحمي المنزل وبقايا الميتين في أعلى المنزل ؟ في بعض الحضارات اليوم عندما يموت شخص ذو مكانة فإن إحراق المنزل الذي كان يعيش فيه هو طقس مهم^(١٥).

لقد كانت القرية المحروقة تكتلًا كثيفاً من الأبنية وساحات المنازل الكبيرة فقد نقب عن مساحة كبيرة لهذه القرية المحروقة التي بقيت جدران بعض منازلها مرتفعة حتى ١,٤ م تقريباً وتبين أن بيوت القرية مشيدة على مصاطب متتالية في ارتفاعاتها وكانت منازل القرية ذات أشكال مستطيلة متعددة الجوانب ومشيدة بالطين المدكوك على امتداد أنساق شديدة الانتظام أحيطت بها أبنية دائرية أصغر^(١٦). وتبدو الأبنية المستطيلة وكأنها قد قسمت إلى ثلاثة صفوف أو أجنحة، يتألف كل منها من سلسلة من الحجرات الصغيرة. يحتوي بعضها على ١٥ حجرة أو أكثر صغيرة يتراوح حجمها من ٣ - ٥ م^٢ لبعضها مداخل عادية، في حين أن مداخل بعضها الآخر

ذات أحجام محدودة لدرجة أن المرء يضطر لأن يزحف عبرها على يديه وركبتيه وبعض الحجرات ليس لها أي مدخل على الإطلاق ومن الواضح أن الوصول إليها كان من السقف فقط. ولقد كان أسقف هذه البيوت من الخشب والقصب والطين. ولقد وجدت في المناطق المكشوفة المحيطة بالأبنية الضخمة المتعددة الحجرات في مركز القرية تشييدات دائرية بقطر يصل حتى ٥ أمتار وهذه التشييدات التي تدعى بالثولوي كانت مطلية بالجبس الأبيض ولها مداخل صغيرة وقد بنيت من مواد البيوت الأولى نفسها وبشكل ظهورها هنا دليلاً على أنها لم تكن من ابتكار حضارة حلف بل إنها سبقتهم وعرفت منذ نهاية العصر الحجري الحديث (النيوليت). فالتقنيات في مواقع كتل حسونة وياريم تبه في شمال العراق وفي تل صبي الأبيض حالياً، تبين أن هذه الأبنية لها جذور في تقاليد العصر الحجري الحديث ما قبل فترة حلف^(١٨).

ونذكر بأن البيوت الدائرية عكس البيوت المستطيلة لم تتأثر بالحريق الذي أصاب القرية كونها مبنية بما في ذلك سقوفها على شكل قبة من الطين. ووجدت إضافة إلى البيوت عدة مواقع وتنانير وهياكل عظمية وأدوات أثرية من بينها: أدوات صوانية كثيرة ومتنوعة تأثر معظمها بالحريق وأهم الأدوات كانت تلك التي لها وظيفة ببنية يومية مثل: المقاحف والسكاكين والمخارز والأزاميل والأدوات المسننة. وعلاوة على ذلك تم العثور على آلاف اللقى في مواقعها داخل الأبنية المحترقة منها تماثيل حيوانية وهي قليلة ومختزلة صنعت من الطين المجفف معظمها مكسر ويبدو أنها كانت تمثل الثور بشكل خاص وأيضاً الدمي الإنسانية في معظمها تمثل الأجزاء السفلى من الجسم وهي تجسد في غالبيتها نساءً كسرت رؤوسها، ربما بشكل مقصود أثناء المراسم الجنائزية. هذه الدمي صنعت من الطين المجفف بالشمس بعد أن تم التركيز فيها على عناصر الأمومة كالصدر والفرج. ومعظم الدمي لها خصر ضيق وتحمل خروزاً تزيينية مختلفة، وهي تشبه تماثيل أخرى تنسب إلى حضارة حسونة أتت من موقع ياريم تبه في شمال العراق. أما التماثيل الحيوانية فهي قليلة ومختزلة صنعت من الطين المجفف أيضاً معظمها مكسر؛ ويبدو أنها تمثل الثور بشكل خاص. كما ويجدر ذكر القطع الكبيرة المصنوعة من الطين والتي حملت ثقوباً وبعضها حمل بقايا قرون حيوانات مما يشير إلى وظيفة دينية محتملة لهذه القطع. وكما تم العثور على حلي تعلق بالشفاه، لكن الأكثر إدهاشاً هو اكتشاف مئات الأختام وطبعاتها Sealings والقطع الصغيرة فيش Tokens التي ربما استخدمت في الحساب. إن الأختام التي وجدت في هذا الموقع هي أكبر وأقدم أختام معروفة حتى الآن، وهي تعود إلى نهاية الألف السادس ق.م أي قبل وصول الحلفيين وبعدهم العبيديين الذين عُدوا أول من ابتكروا هذا النوع من الأختام منذ حوالي منتصف الألف الخامس ق.م. وصنعت هذه الأختام من الطين وحملت أشكالاً متنوعة معظمها هندسي كالخطوط المتعرجة والدوائر والمثلثات والخطوط المتقاطعة... وبعضها حمل أشكالاً طبيعية كالنباتات والحيوانات وبخاصة الماعز ذات القرون الكبيرة والغزال، وقد جُسدت بواقعية مذهلة. وهناك بعض الأشكال الإنسانية المختزلة وغير الواضحة المعالم. واستخدمت هذه الأختام في ختم الأواني التي حملت مختلف أنواع البضائع وبخاصة الأواني الفخارية والصلال وهذا - أيضاً - يدل على علاقات تجارية بعيدة المدى تم فيها تبادل الفخار والنحاس والأوبسيديان والبازلت مع مناطق الأناضول المجاورة وغيرها. وقد رافقت الأختام قطع طينية صغيرة (فيش) وكلها كانت ذات أشكال بسيطة هندسية مثل الكرة والأسطوانة والقرص والمخروط... الخ ويعتقد أنها استخدمت في عملية الحساب والتجارة لتحديد كميات المواد المعنية بالعمليات التجارية الجارية. وعثر على هذه الأختام والفيش في مكان آمن وسليم، وهذا يشكل دليلاً على أهمية اللقى في وجود نظام إداري ومالي وتجاري متطور، تشكلت فيها معاني الملكية والإنتاج والمشاغل والأشخاص المعنيين بذلك بكل وضوح. ومن جهة أخرى، يدل التنوع الكبيرة لهذه الأختام على انتشار الاستخدام الواسع لها بين معظم الناس وعدم اقتصرها على نخبة بعينها^(١٩) /

الشكل ٦.

وصل الاستيطان الحلفي في تل الصبي الأبيض إلى نهايته حوالي ٥٠٠٠ ق.م ومن المرجح أن سكان المستوطنة انتقلوا إلى تل مجاور لأن انتقال الاستيطان كانت صفة مميزة للعصر الحلفي الحديث في وادي البليخ بين ٥٠٠٠-٤٠٠٠ ق.م تقريباً^(٢٠). ويبدو أن الموقع كان قرية مزارعي ومربي ماشية منذ أيامه الأولى مما يؤكد ذلك وجود عظام الحيوانات المدجنة مثل الغنم والماعز والخنزير،

وبقايا النباتات المتفحمة كالحبوب والعدس والكتان. إضافة إلى آثار أدوات الطحن والسحق من مدفآت ومجاريش وأدوات زراعية من معاول ومناجل. وبالتالي نجد أن القرويين قد ربوا الحيوانات كالخراف والمعرز والخنازير، بينما كان الغزال هو أهم حيوانات الصيد^(٢١).

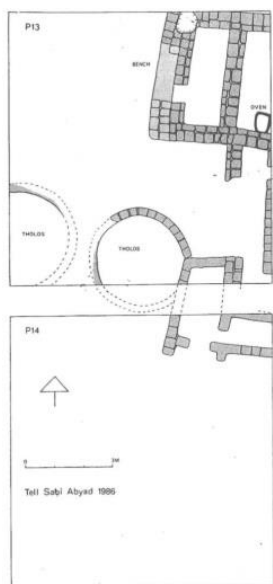
بعد فترة العصر الحجري الحديث بقي تل صبي الأبيض (١) مهجور لآلاف السنين ليعود إليه الاستيطان في أواخر العصر البرونزي الحديث مع توسعات الدولة الآشورية الوسطى، عندما نجح الملك الآشوري شلمنصر الأول (١٢٧٣ - ١٢٤٤ ق.م) في هزيمة الإمبراطورية الميتانية في حوالي ١٢٧٣ ق.م، أصبح تل صبي الأبيض مستوطنة حدودية على التخوم الغربية للإمبراطورية الآشورية الوسيطة ويحمل الموقع كمركز إداري وعسكري محصن وكذلك كمقر للحاكم. احتوى مركز الحصن على برج مربع كبير. يظهر الدرج الحلزوني بأنه كان للحصن على الأقل طابقين ولم يحفظ منهما إلا الدور السفلي. يحتوي الدور الأسفل على غرف معتمة للتخزين، يتم الوصول إليها عبر أبواب مقنطرة. إلى جوار البرج يقع قصر الحاكم وهو غرفة مركزية كبيرة، يحيط بها على كلا الجانبين ثلاث أجنحة أصغر. يحتوي كل جناح على حمامات ومراحيض خاصة به على شاكلة مراحيض القرفصاء اليوم، وتألفت تلك المراحيض من فتحة في الأرض المرصوفة مع درجات على الجانبين. يحيط بالبرج والقصر أبنية مكتبية وأبنية للتخزين وأقسام للمعيشة وباحات وورشات صناعية وعلى الرغم من أن المستوطنة اعتمدت على عاصمة آشور (في الوقت الحاضر العراق) فإن كثيراً من الأشياء تم إنتاجها محلياً، لا الطعام فحسب بل الفخاريات أيضاً، كما يدل على ذلك وجود مشغل فخاريات. وتبلغ مساحة المستوطنة بالكامل تقريباً ٦٠×٦٠ متراً ويحيط بها سور سميك تتراوح بين ١-٢ متر. والظاهر أن سكان المستوطنة هجروها على عجل حسب ما تبينه مئات الأشياء التي وجدت متروكة على الأرض من ضمنها الكثير من الأواني الفخارية الكاملة التي تكون عادة غير مزخرفة وذات شكل حجم معياري. ومن المكتشفات النموذجية أيضاً الزبادي الصغيرة والأقداح ذات القواعد التي تشبه الحلمة. وضمن المكتشفات أيضاً أسلحة وأدوات برونزية ومجوهرات وأحجار طحن ومن أكثر تلك المكتشفات إثارة كانت مجموعات الألواح الطينية ذات الكتابة المسمارية التي تم اكتشافها في المباني المكتبية وقد حملت هذه الألواح مواضيع مختلفة وحملت كذلك ختم أحد أهم المسؤولين في تلك المنطقة. وقد أعطى هذه الألواح صورة واضحة عن مجريات الحياة اليومية في المستوطنة، إذ نعلم أن اسم الحاكم المحلي هو /تاميتا/ وهو خاضع لسلطة نائب الملك إيلي إيبادا الذي كان أمراً على كل المنطقة /تاميتا ومسؤولون آخرون/. وقد تم استخدام أختام أسطوانية لتوثيق رسائلهم وعقودهم فقد عثر على الختم الشخصي لتاميتا يحمل حيوان خرافي، نصفه نسر ونصفه أسد. أما ختم رئيسه إيلي إيبادا فيحمل صورة فارس ربما هو إيلي إيبادا نفسه وبناء كبير يشبه الحصن ربما يمثل آشور /العاصمة الآشورية/. يشير أحد النصوص إلى توزيع عدد كبير من المناجل البرونزية للحصّادين، وهذا يدل على قيام تاميتا بتنظيم المشاريع الزراعية في المنطقة. ولكن الشيء الملفت للانتباه هو الرسالة الموجهة إلى مدينة صهالا /تل صهلان/ وهي ليست بعيدة عن مدينة تل أبيض، يطلب صانعي الجعة. وهناك رسالة أخرى يطلب صانعي العطور لأن العطور قد نفذت من الصبي الأبيض ومنها أيضاً إيداع ممارسي السحر والشعوذة في السجن^(٢٢).

من نتائج البعثة في سنة ٢٠٠٥، كان العثور على مقبرة الأطفال الواقعة في أسفل التل والمقبرة الخاصة للبالغين المتوضعة في أعلى نقطة في التل، فقد عثر على هيكل لشخص قدر عمره ٢٥-٢٦ سنة تقريباً، فصلت جمجمته ورأسه متجه نحو الأسفل ووضعت في القبر بعد فصلها بينما هيكل الطفل وجد مع أنثى بعد لفه بنوع خاص من القماش. وفي الموسم ٢٠٠٧، فكان أهم نتائجه هو العثور على بعض الفخار الملون وعليه رسومات بأشكال هندسية وسكين برونزي بحالة جيدة بطول ٣٠ سم وهي مزخرفة من الفترة الآشورية الوسيطة، إضافة إلى العثور على أختام حجرية مسطحة وعدد من اللوحات المسمارية وعلى جدران غرف وتنانير وقبور وجد في أحدها صحن حجري لونه أبيض ومخرز. أما موسم عام ٢٠٠٨، فكان العثور على أكبر مقبرة تضم /٦٠/ قبراً فردي وجماعي وتعود للفترة الآشورية الوسيطة، وأيضاً تم العثور على بناء مستطيل الشكل فيها عدد من الغرف، وكذلك عثر على تمثال تمثل أنثى بشكل نصفين وصحون حجرية. وأخيراً ليس آخر، فقد عثرت البعثة في أحد مواسمها أيضاً في أحد القبور على مكتشفات أثرية هامة تضم /١٤/ قطعة ذهبية بينها خاتمان وأقراط وهايكل ذهبية مطعمة بالحجارة الكريمة، بالإضافة إلى أدوات برونزية وخزف^(٢٣).

- الخاتمة:

في الختام يمكن القول أن تل صبي الأبيض كانت إحدى أهم التلال الأثرية في حوض البليخ التي كانت لها علاقات حضارية قوية مع بلاد الرافدين وآسيا الصغرى بدلالة وجود نماذج فخارية من حضارة سامراء. حيث ظهرت في هذا الموقع ولأول مرة الفخار الحلفي وهذا يؤكد أن الجزيرة السورية كانت جزءاً مهماً من موطن الحلفيين الأوائل، وهذا يبطل فرضية انتشار الحلفيين عن طريق الهجرة والتجارة أو التأثير الحضاري من الشرق إلى الغرب. ويؤكد بذلك أن الأصول المحلية لهؤلاء الحلفيين تعود جذورها إلى العصر الحجري الحديث في الجزيرة السورية. إضافة إلى دورها الهام في العصر الآشوري الوسيط حيث أصبحت مستوطنة حدودية لتلك الإمبراطورية وحملت كمركز إداري وعسكري محصن ومقر للحاكم، ودلت عليه الألواح المسمارية التي حملت مواضيع مختلفة لمسؤولين وعليها طبغات أختام لتوثيق رسائلهم وعقودهم. هذا إضافة إلى العثور في الموقع على الكثير من الفخاريات وجدران غرف وتنانير وقبور وأدوات زينة.

ومع مسك الختام يطيب لي التذكير بالقول المأثور: " إن تزورها مرةً خيراً من أن تسمع عنها ألف مرة ".



الشكل ٢:

مخطط مسقط الأبنية المكتشفة في المربعات P13-P14

نقلًا عن (فان لون، مورثيس وآخرون، ص ٣١٤)

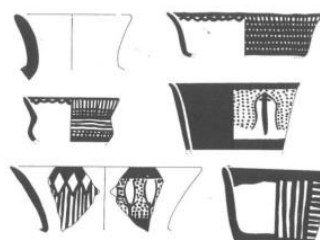


SAB 86-H1

الشكل ١:

تمثيل مصنوعة من الطين المشوي من عصر حلف

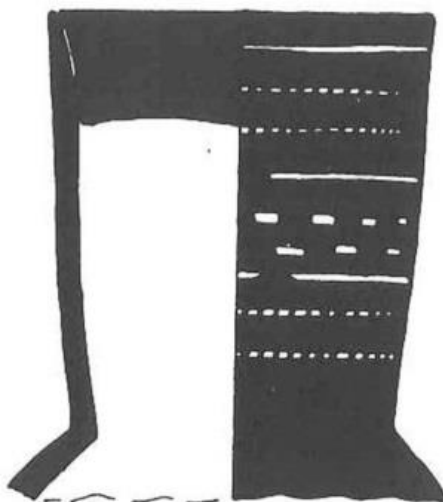
نقلًا عن (فان لون، مورثيس وآخرون، ص ٣١٧)



الشكل ٣:

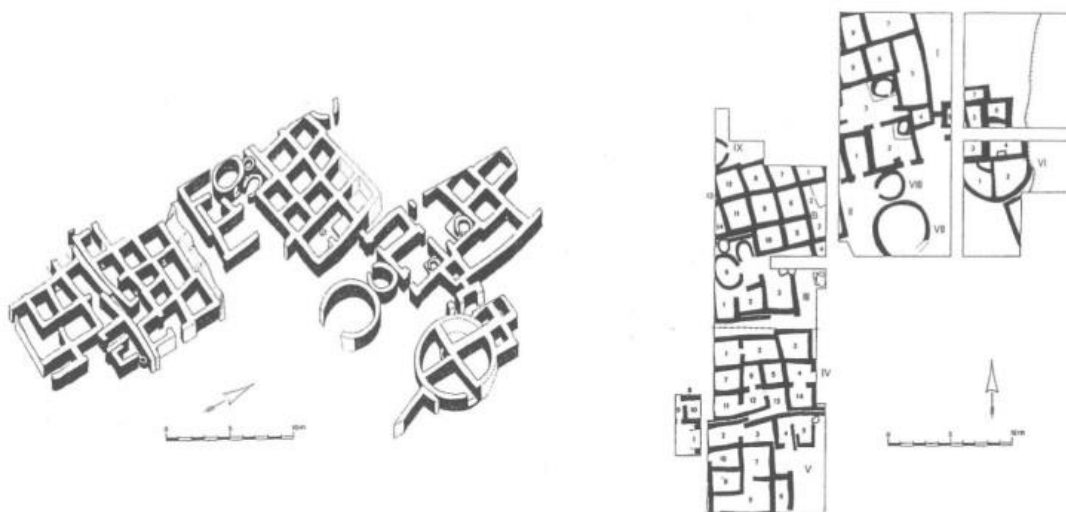
رسوم توضيحية لفخار حلف

نقلًا عن (فان لون، مورثيس وآخرون، ص ٣١٦)



الشكل ٤:

كسرة فخار مصنوعة حسب تقاليد فخار سامراء
مكتشف في سويرة حلف المبكرة
نقلًا عن (فان لون، مورتيس وآخرون، ص ٣١٧)



الشكل ٥:

مخطط القرية المحروقة
نقلًا عن (محيسن، سلطان، ص ٤٢٣)



الشكل ٦:

طبغات أختام حملت أشكال هندسية وطبيعية
نقلًا عن (محيسن، سلطان، ص ٤٢٥)

الحواشي

- ١- نخبة من الباحثين، الرقة درة الفرات، مراجعة وتدقيق سهيل زكار، (الرقة، ١٩٩٢)، ص ٢٤٦-٢٤٧.
- ٢- معهد الآثار الألماني، أمكنة وأزمنة، ٢٥ عاماً من الأبحاث الأثرية في سورية ١٩٨٠-٢٠٠٥، ترجمة: هاني صالح، محمد قدور، (دمشق، ٢٠٠٥)، ص ١٤٩.
- 3- Akkermans.P.M.M.G , villages in the steep, late Neolithic setteementand subsistence in the Balikh valley, northern Syria, (Amsterdam, 1990), Pp. 111-112.
- 4- Akkermans, P.M.M.G, "Tell Sabi Abyad", Chronique Archéologique En Syrie, vol. 1, (1992), pp. 36 - 37.
- ٥- كوبلاند، لورين، "تلال ما قبل التاريخ في وادي البليخ الأدنى"، تعريب سلطان محيسن، الحواليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٣٢، (١٩٨٢)، ص ٢٠٧ - ٢٠٩، ص ٢٠٧.
- ٦- محيسن، سلطان، عصور ما قبل التاريخ، جامعة دمشق، ٢٠٠٦، ص ٢٩٩.
- ٧- أكرمانز، بيتر، "تل صبي أبيض"، معرض الآثار السوري الأوروبي، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (دمشق، ١٩٩٦)، ص ٣٠ - ٣٣، ص ٣١.
- ٨- أكرمانز، بيتر، " وادي البليخ في العصر الحجري الحديث "، وثائق الآثار السورية ١، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (٢٠٠٢)، ص ١٩١-١٩٢.
- ٩- فان لون، مورتيس وآخرون، "نتائج حفريات موسم ١٩٨٦ في حمام التركمان والصبي الأبيض على البليخ"، ترجمة: محمد ماجد الموصلي، الحواليات الأثرية العربية السورية، المجلد ٣٦ - ٣٧، (١٩٨٧-١٩٨٦)، ص ٢٠٣ - ٢٠٩، ص ٢٠٣ - ٢٠٤.
- ١٠- أكرمانز، بيتر، "وادي البليخ في العصر النيوليتي"، الندوة الدولية، الجزيرة السورية، التراث الحضاري والصلات المتبادلة، وزارة الثقافة، المديرية العامة للآثار والمتاحف، (دمشق، ١٩٩٦)، ص ٣٠.
- ١١- فان لون، مورتيس وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٠٤.
- ١٢- أكرمانز، بيتر، ٢٠٠٢، ص ١٩٣.
- 13- Akkermans, P.M.M.G. Villages in the steep, Late Neolithic Settlement and Subsistence in the Balikh vally, Northern Syria , (Amsterdam, 1990) , pp. 69 - 74.
- ١٤- محيسن، سلطان، المرجع السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.
- 15- Akkermans. P.M.M.G, 1992 , p. 37.
- ١٦- حمادة، حميدو، آثار بلاد الشام، نوبة لطلاب السنة الثانية في قسم الآثار، كلية الآداب، جامعة حلب، ٢٠٠٥.
- ١٧- محيسن، سلطان، المرجع السابق، ص ٣٠٠.
- ١٨- أكرمانز، بيتر، ٢٠٠٢، ص ١٩٢.
- ١٩- محيسن، سلطان، المرجع السابق، ص ٣٠١ - ٣٠٢.
- ٢٠- أكرمانز، بيتر، ٢٠٠٢، ص ١٩٣.
- ٢١- أكرمانز، بيتر، ١٩٩٦، ص ٣١.
- ٢٢- حمادة، حميدو، المرجع السابق.
- ٢٣- أخذ المعلومات في مقابلة شخصية بتاريخ ٢٠٠٩/٢/١٢ مع السيد إبراهيم الحميدي وخبيل الظاهر (عمال في موقع الصبي الأبيض).